السلطان أبو النصر إسماعيل بن الشريف

ولد بسوس عام خمسة وستين وألف على ما في بعض التواريخ، وقيل إنه ولد عام ثمانية وخمسين وألف، ورمز لذلك بلفظ (خش١٠٥٧) والذي حدثني به بعض المسنين من العدول أبناء عمنا الأشراف سكان تافيلالت أنه ولد بتافيلات وأن محل ولادته لا زال معروفا بالتواتر عند كبيرهم والصغير؛ وعندي أنه ولد بتافيلات لا بسوس، وتاريخ ولادته المأخوذ من كلامهم على بيعته مع تاريخ خروج والده من سجن أبي حسون بودميعة يشهد له، وما جاء عن ابن الصباغ واهٍ لا يلتفت إليه لانفراده به، والله أعلم، وقد بسطنا الكلام على ذلك في المنزع اللطيف.

بويع له بفاس بعد أخيه الرشيد المذكور سنة اثنين وثمانين وألف موافق أربعة وستين وستمائة وألف.

وتوفي بمكناسة الزيتون يوم السبت الثامن والعشرين من رجب عام تسعة وثلاثين ومائة وألف، موافق واحد وعشرين من مارس سنة اثنين وسبعين وسبعمائة وألف.

كان فسح الله له في عدنه من أكبر الساسة المحافظين على الحضارة الأندلسية والمدنية العربية في حواضر المغرب وبواديه؛ بل تاج مفرق أبطالها ويتيمة عقد صناديدها المشيدين لمنارها ناهيكم بما حفظه له التاريخ من ذلك في المشارق والمغارب، ولا زالت آثاره الضخمة المشاهدة بالعيان يتحدى بها الغربي ويفتخر بها الشرقي، وممن اعترف بذلك واهتبل به وأقر بعلو كعبه فيه (استيورت) والكمندار (استيفار) الإنجليزيان، ونقله عنهما جونْ وندروس الإنجليزي في رحلته إلى المغرب عام ١٧٢١ موافق سنة ١١٣٤.

وقال بعض حذاق مؤرخي فرنسا من أهل العصران: مولاي إسماعيل بآثاره ودهائه يساوي الملوك العظام بفرنسا.

وقال غيرهما: كم مهد من سبيل، وأمن من خائف، وأكسب من معدوم، وأوقف من أوقاف في سبيل الله ودفاتر أحباس الأيالة الشريفة أكبر شاهد وأجل برهان وكم شيد من قصور، وأسس من دور، وأحيى من فن جميل وغرس من بساتين واتخذ من حدائق غناء جمع بها أنواعا من الحيوانات غزلانا وسباعا وأراوي وضبابا وقردة وحمر وحش ونعما وغير ذلك، وكان يهادي ملوك أروبا بالبعض من ذلك، وكم جدد من داثر، وشيد من معافل، وزوق وروق وجلب من بلاد الروم من رخام لما بناه في عواصمه العالية الأوصاف، المتسعة الأكناف.

آثاره بفاس:

منها اعتناؤه الكامل قدس الله ثراه بأمر الأهلة وارتقاب استهلالها في سار الأيالة وبصفة خاصة بفاس لما يتعلق بها من أداء بعض العبادات المهمة من صوم وفطر وحج وغيره.

فقد نظم ذلك «جعل النعيم مثواه» على قاعدة في غاية الضبط والإحكام، وذلك بأن رتب لذلك عدولا معينين لارتقاب الأهلة بمنار جامع القرويين -عمره الله بدوام ذكره- عشية كل تسع وعشرين من كل شهر من شهور السنة على التوالي فإن رأوه قيدوا شهادتهم بها في دفتر خاص بذلك، وإن لم يروه قيدوا شهادتهم بعدمها فيه أيضا ويخاطب قاضي الوقت على شهادتهم المذكورة ثم ترسل نظيرتها إلى حضرته العلية وكان لهم مرتب مناسب يتقاضونه على ذلك من الأحباس.

ولنورد لكم وثيقتين من ذلك الأنموذج دليلًا على ما ذكر نص أولاهما:

«الحمد لله ارتقب شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه عشية يوم تاريخه هلال شهر الله شعبان المتصل بشهر تاريخه بمنار جامع القرويين شرفه الله سبحانه وتعالى بدوام الذكر فيه حيث ترتقب الأهلة بمغاربها المعروفة، وأماكنها المعلومة المألوفة، فلم

يعاينوه وقيدوا بذلك شهادتهم بعد غروب الشمس من يوم الخميس التاسع والعشرين من رجب الفرد الحرام من العام الثالث عشر بعد مائة وألف»، وبعده إشكال عدول أربعة، وبعدهم خطاب القاضي ونصه: أدوا فقبلوا وأعلم به فلان بشكله ودعائه.

ونص الثانية:

«الحمد لله ارتقب شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه عشية يوم تاريخه هلال شوال المبارك الموالي لشهر تاريخه بمنار جامع القرويين شرفه الله سبحانه وتعالى بدوام الذكر فيه حيث ترتقب الأهلة بمغاربها المعروفة، وأماكنها المعلومة المألوفة، فلم يعاينوه وقيدوا بذلك شهادتهم بعد غروب الشمس من يوم الأربعاء التاسع والعشرين من رمضان المعظم عام أحد وثلاثين ومائة وألف» وبعده إشكال عدول أحد عشر وبعدهم خطاب نائب القاضي ونصه: أدوا فقبلوا وأعلم به نائب قاضي الجماعة بمدينة فاس فلان بشكله ودعائه صح من دفتر كان منخزا لذلك بخزانة القرويين وهو الآن تحت عدد ٨٢٣ من قسم ٤٠ من المخطوطات بالمكتبة القروية عمرها الله.

والأوراق التي بقيت من الكناش المذكور مبدؤها من عام ثلاثة عشر ومائة وألف إلى غاية عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف الشهر تلو الشهر، وقد اقتفاه في ذلك بنوه وحفدته الملوك من بعده ولا زال جاريا به العمل في الجملة إلى الآن بسائر الأيالة، وبالأخص في شهري شعبان ورمضان.

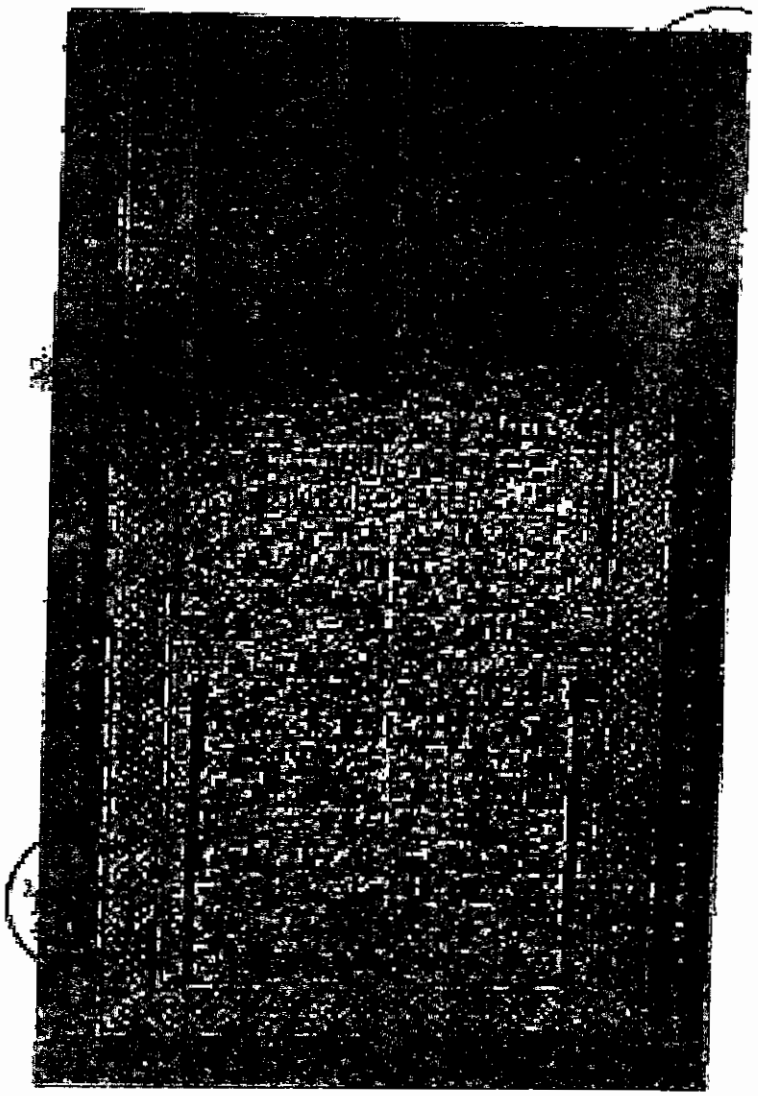

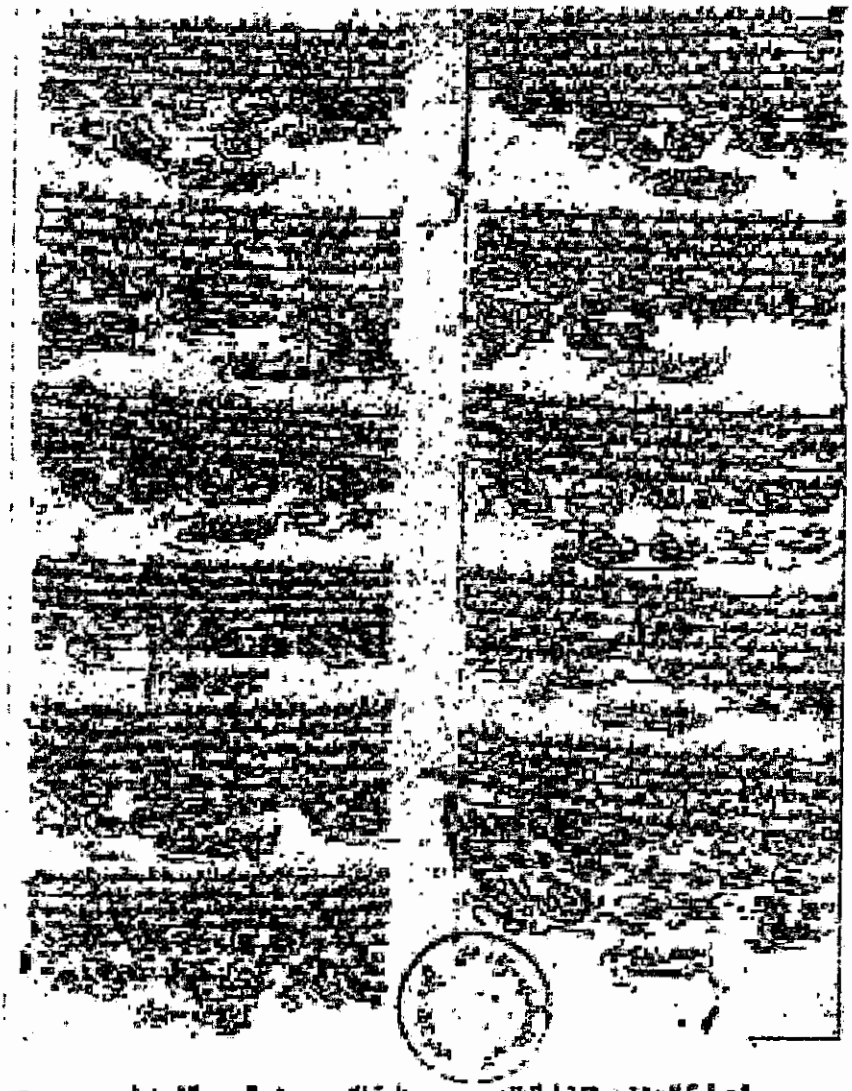

الدعامة الحالية بزاوية محل الشهود من مئذنة القرويين في العصر الاسماعيلي ٣٢

ومنها اعتناؤه بالمدارس ومجازاة المحصلين من طلبة العلم بعد الاختبار والامتحان بإعطاء المناصب الشرعية وغيرها، وحسبكم دليلا ما شهد به الأجنبي الذي شأنه البحث عن النقائص الكمندار (استوار) في رحلته لمكناس حيث قال:

توجد مدارس عديدة يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة والحساب يحفظون القرآن عن ظهر قلب، فإذا ما حفظوه اشترى لهم آباؤهم أفراسا هدية ويتناول المصحف بيده ويركب الفرس يتفسح عليه، وتأتي إليهم أجواق الطرب وسائر صبيان المكتب تذهب للتفسح مع المحتفل به حافظ القرآن، وبعد ذلك من أراد قراءة الفقه يتوجه للمساجد.

قال: ولا أدري هل يقع احتفال بمن تمم دروسه العلمية كما تقدم أم لا؟ نعم الذي أعلم أن التلميذ عندما يتمم دروسه يقع امتحانه واختباره فمن فاز بأغلبية الأصوات على أقرانه عين قاضيا أو مفتيا هـ.

وقد كان يستدعي للسمر مع أعيان العلماء المفكرين والكتاب النابلين وأهل الخبرة الذين حنكتهم التجارب[1] ويفاوضهم في مهم شئون الدولة وما يروج في الرعية ويبحث عن أحوال العمال وسيرتهم في الأيالة سعيا وراء الوقوف على عين الحقائق للضرب على أيدي المعتدين وتدارك رتق ما عسى أن يكون انفتق قبل اتساع الخرق حسبما صرح بذلك صاحب الدرة المكنونة الغالية وغيره.

وكان يقدر قدر العلماء ويعلي من شأنهم، ويصلهم بضافي الصلات ففي جمادى الأولى عام ألف ومائة استدعي العلماء من فاس لقصره العامر لحضور ختم الإمام أبي عبد الله المجاصي تفسير القرآن الكريم، وكان الختم في قصره العامر ببيته الخاص، وبه نصب المنبر للفقيه المذكور، وبعد الفراغ من درس الختم أفيض على الضيوف الكرام،

---

(١) كمساجد، ومقاليد.

قادة الأمة وأئمتها الأعلام، ما لذَّ وراق من فاخر الأطعمة وأن قدس سره هو المتولي بنفسه صب الماء على أيدي ضيوفه العظام حسبما أشار لذلك الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء، في باب ما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل لدا قول المتن روى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير....إلخ.

وهو الذي تولى أيضا تفريق الجوائز فيهم بيده فقال الضُّعَيّف وكان ذلك من مشاهده الجميلة، ومصانعه الجليلة، نفعه الله بأجر ذلك وتقبل منه هـ.

وناهيك بذلك كله غاية في الاهتمام بالعلماء والعلم وإظهار كمال شفوف منصبه، وبذلك أينعت أغصان جنة العلوم والمعارف وصلحت ثمارها وتفتحت في الأيالة المغربية أكمام أزهارها بعد الذبول.

قال في الظل الوريف في السمط السابع ما لفظه: حدثنا غير واحد ممن طعن في السن من أشياخنا قال: كنا في زمن الشبيبة نطلب العلم ونسأل عن مسائله، خصوصا علم المنطق فلا نجد من يتقن مسائله على صورتها ولا نلقي من تضلع به بل كانت الأرجوزة المسماة بالسلم لا يعرفها غير رجل أو رجلين، فلما مهد الله لهذه الدولة الأكناف، وأسمى قدرها وأناف، تدفقت على الناس العلوم، ودانت صعاب الفنون حتى عاد صغار الطلبة يعرفون فنونا عديدة، ويكون لهم فيها عارضة مديدة، وقد تخرج في هذه الدولة السعيدة جماعة من الأعلام لهم القدم الراسخ في العلم واليد الطولى في الإتقان، وألفوا تآليف حسنة ومنهم من فسر كتاب الله عز وجل ووضع عليه تقييدا فائقا[1] ومنه من شرح الموطأ للإمام مالك[2] ومنهم من شرح الشفا

---

(١) كالعلامة أبي عبد الله محمد فتحا ابن عبد الرحمن ابن زكري المتوفى ليلة الأربعاء ثامن عشر وقيل الثامن والعشرين من صفر عام ١١٤٤.

(٢) كالعلامة أبي الحسن علي بن أحمد الحريشي بضم أوله وفتح ثانيه وسكون ثالثه آخره عين معجمة بعدها ياء النسب المتوفي عام ١١٤٥.

لعياض[١] ومنهم من شرح مختصر خليل[٢] ومنهم من شرح ألفية ابن مالك[٣] ووضع على ابن هشام حاشية[٤] ومنهم من شرح السلم[٥] ومنهم من شرح السبكي[٦] ومنهم من شرح عقيدة السنوسي[٧] وما من علم من العلوم إلا ألف فيها علماء هذه الدولة وأبدءوا فيه وأعادوا ووقعوا على الغوامض التي لم يعثر عليها من مضى، وقد تلقيت من غير واحد أن القبيلة كانت قبل هذه المدة لا يوجد فيها إلا طالب واحد وربما يحتاج أحد من أهل مدشر أو دوار لمن يقرأ له رسالة فلا يوجد من يحسنها حتى يرحل المسافات البعيدة لطالب يذكر له والآن كل مدشر ودوار بل كل خيمة فيها طالب هـ.

وقال أبو محمد عبد السلام بن الخياط بن محمد بن علال القادري في تقاييده التاريخية عند تعرضه لتعداد محاسن مولانا إسماعيل: وقرئ العلم في أيامه وأمنت

---

(١) كالحريشي المذكور وأبي زيد عبد الرحمن الفاسي وسم شرحه بمفتاح الشفا وكانت وفاته يوم الثلاثاء ١٦ جمادى الأولى عام ١٠٩٦.

(٢) كأبي علي ابن رحال فإنه شرح المختصر بما يزيد على خمسة عشر مجلدًا وحشي الخرشي، وأبي العباس أحمد المجيلدي سمي شرحه أم الحواشي وصنيعه فيه يبين الصورة أولا بما فهمه ثم يقتل ما يناسبه من نصوص الأئمة ثم يأتي بما لسائر الحواشي المتقدمة عنه، وكأبي عبد الله محمد بن عبد الصادق الدكالي وأبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس.

(٣) كأبي الفضل مسعود جموع المتوفى أواخر جمدى الأولى ١١٢٨.

(٤) كأبي عبد الله ابن زكري المذكور.

(٥) كالإمام اليوسي وأبي عبد الله محمد ابن أبي مدين وأبي العباس أحمد بن يعقوب الولالي.

(٦) كأبي العباس الولالي المذكور فإنه حشى على المحلي، وأبي علي اليوسي فإنه شرح السبكي إلى إذا الفجائية واختر منه المنية سمي شرحه الكوكب الساطع.

(٧) كأبي علي اليوسي أيضا فإنه حشى على شرح الإمام السنوسي لكبراه وكالشيخ أبي عبد الله البيجري فإنه شرح السنوسية شرحًا حافلا في مجلدين، ولو تتبعنا من ألفه علماء دولة كل ملك من ملوكنا العلويين في مختلف الفنون والموضوعات من دولة المولى الرشيد إلى دولة سلطاننا المحبوب أيده الله ونصره لجاء ذلك في مجلدات.

البلاد والعباد بما لم يتقدم في أيام غيره من الملوك.

وقال أبو العباس أحمد بن يعقوب الولالي في طالعة مؤلفه أشرف المقاصد في شرح المقاصد: فإن العلم بمغربنا قبل هذا متضائل الحجة، متضايق الحجة، حين معالمه موسوسة بالاندراس، ورجوع الحشاشة إليه من روحة بادية الأياس، لتضاعف أهوال أعلى معاشره تشيب لها النواصي، فشغل كل عن نفسه بكثرة ما يقاسي، ولترادف فاقاك كاسرة لعزماتهم أشد من كسر الهمام العواصي، فهي بحيث تذوب لها الجنادل الصلب القواسي، حتى صار من هو منهم أهلٌ لاقتناص أزاهره، وجديرٌ بنظم فرائد جواهره منبوذًا بالعراء، ملزوم أفنية الورى، منقطع المدد، في تلك المدد، لا يلوي له أحد، فهام حزب أهل العلم في ظلمات الافتقار، وطال عليهم ليل الإلغاء والاحتقار إلى أن تداركهم نعمة من ربهم، بطلوع طالع السعادة لحزبهم، وذلك بظهور الدولة الشريفة المولوية، الهاشمية الإسماعيلية، فإذا بدور عزهم طالعة مسفرة، وإذا وجوه أفراحهم ضحكة مستبشرة، فذهبوا في العلوم حينئذ كل مذهب، وتسنموا في المدارك أعلى ما يتطلب، فعممت مجالس التدريس مساجدهم، وغشيت رحمة التعاطي للفهوم معاهدهم، وصارت حجج العلم لديهم تتمايل اتضاحا، وشبهات الجهل في جانبهم تتضائل افتضاحا، ولم يزالوا في الارتقاء في تلك المدارج، والتنافس فيها طلبا لسلوك أعدل المناهج، إلى أن بلغوا أعلى مراتب الإنشاء و التأليف، فصاروا بعد التعرف والتعلم رءوس التعاليم والتعاريف، ثم زادهم من لا يخيب لآمل أمله، ولا يبطل لعامل مؤمن عمله، نعمة منه بأن جعل خليفته فيهم هو المنصور بالله تعالى (مولانا إسماعيل)، رأس أملاك العصر وهامة القماعيل[1]، وجعله ملاحظا لهم بعين الإجلال والتوقير، رءوفا بهم رأفة الوالد بولده الصغير، خافضا لهم جناح رحمته، حافظا لهم من كل إهانة بسطوته، مادًا عليهم سرادقات عزته، يزيد لمحسنهم في

(١) جمع قمعال بالكسر سيد القوم.

الإحسان، ويتجاوز عن مسيئهم بالعفو والامتنان، قد كفاهم مهمات دنياهم، وأنعش لنيل المعالي قواهم، آمنهم من الخوف بحسن ما أظهره، وفتح لهم منافع الدين والدنيا بصفاء ما أضمره، خلد الله تعالى ملكه، وأدام حسن سيرته فيما ملكه، ومن قال: آمين؛ أمنه الله في العاجل والآجل، فإن هذا دعاء للبرية شامل، ثم إن من بركة هذه الدولة السعيدة، ومن لطائف ميامنها العديدة، أن فتح لي في إنشاء عدة من المؤلفات، في فنون صعبة وعلوم مختلفات، وكان هذا الشرح من جملتها صح منه وهو مطبوع بمصر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف.

وقال صاحب نشر المثاني: وجدد الناس في أيامه للعلوم عهدا فكانت أسواق العلوم في دولته عامرة، ونجوم أفلاكه نيرة زاهرة، وأدرك الهناء في أيامه كثير من الضعفاء والأيتام، وقسام فيه كثير من الناس بالعلم والدين أتم قيامْ، وكان الناس في أيامه يغتبطون حياته وذلك اغتباطا بما أمد الله على رعيته من الظل الظليل، ونالوا ببركته من العز الجزيل هـ. ونحوه في تاريخ الضعيف.

وفي التقاط الدرر ما لفظه: وكانت أيام مولانا إسماعيل رحمه الله أيام أمن وعافية للرائح والغادي، والحاضر والبادي، عدا من تقدم له أو لآبائه تلصص أو دخل في فتن فكان عليه شديدًا، وخلاصه منه بعيدًا، فقطع بذلك دابر جميع اللصوص، وعلت به مراتب أهل الجاه والخصوص، كل منزل في محله، وكل ذي أصل رجع إلى أصل، فكثرت العمارة في كل موضع وأُخمدت الشرور وتتابع الرخاء، وكثر العلماء والصلحاء، وشمخ ملكه، وطلع سعده بالنصر والتمكين حتى دار فلكه.

ومن رام استقصاء ما له من الأيادي البيضاء في النهضة العلمية فليراجع مؤلفينا المنزع اللطيف، والنهضة العلمية، على عهد الدولة العلوية.

وأما اعتناؤه بجمع الكتب وبذل كل غال ونفيس في سبيل تحصيلها فنسيج طارت

به الركبان وحفظه له التاريخ حسبما قاله في الظل الوريف ولفظه: وأما آلات العلم وجمع الكتب فله نصره الله في ذلك الهمة البالغة، والرغبة السابغة، وقد جمع من الدفاتر في كل فن ما يحير العقول، وقال في سنا المهتدي[1]: حوت الخزانة الإسماعيلية من التصانيف، وجمعت من أنواع الدفاتر وأسماء التأليف، ما لم تحوه خزانة بغداد، ولا علق بذهن الداني الأستاذ.

وقال في روضة التعريف ما لفظه: ومن عادته نصره الله أن يسرد كل يوم فصلا من كتاب إلى أن يختمه ويتبدئ كتابا آخر إلى أن قال: وله من المحاضرات مع كتابه والمباسطة في القطع الأدبية ما يبخس زهر الرياض، ويزري بفتور الحدق المراض، من ذلك أنه نصره الله خرج يوما وخلفه جارية وسيمة حاملة لسيفه فاستنزل قرائح الكتاب في وصفها فقال في ذلك خاتمة أهل الأدب، وسراج من تأدب، عبد الأحق السحيمي[2]:

حملت سيوف الهند وهي غنية عن حملها بفواتر الأجفان

وقد حفظ لنا التاريخ أنه كان ينتقي من أقطار أياله الخطاطين المتقنين لنسخ الكتب القيمة ويجري عليهم الجرايات الضافية ولهم محل خاص بنسخ الكتب بأفنية القصر يغاديهم ويراوحهم فيه كل يوم ويفيض عليهم سجال العطايا ويمنحهم البلادات الهامة والدور الأنيقة واقتفى أثره في ذلك الملوك بنوه وحفدته من بعده ولا سيما السلطان المولى الحسن قدس سره فإنه كان له ساحون بارعون ملازمون لأبوابه ظعنًا، وإقامة ما فارقوه إلى أن ختمت أنفاسه، فسح الله له في عدته آمين.

---

(١) كتاب أدب نفيس ألفه مؤلفه أبو الحسن علي الزرويلي، أبان فيه عن مقدرته في الأدب وطول باعه وتبحره فيه وجعله ترجمة لفخر وزراء الدولة الإسماعيلية محمد ابن الحسن البحميد وهو في مجلد ضخم.

(٢) نسبه لسحيم فخذ من قبيلة سي حسن إحدى قبائل المغرب الأقصى العربية الشهيرة.

ومن أجل وأجمل آثاره بناء فندق التجارة بحومة النجارين الشهيرة بهذه العاصمة[1] عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف، يدل لذلك ما قرأته في نقش زليج بأعلى بابه، ولفظه:

بمولاي إدريس الرضى نلت رفعة وفضلا فأسعدني بمجد مؤثل
فيا طالبا أمنا وحفظا لماله وجدت الذي تهوي رويدك فانزل
بأسعد وقت قد نشأت مؤرخا (١١٢٥ بشعبان) في سن وصنع مكمل

ومما امتاز به هذا المتجر عن غيره وفاق تأسيس مسجد به تقام فيه الخمس وجعل إمام راتب به، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة.

ومن آثاره بها أيضا إتمام بناء قنطرة وادي النجا، وجامع الزليج بسوق التبن الواقع فيما بين مسجد الرصيف وزاوية أبي محمد عبد القادر الفاسي، وقبة أبي غالب دفين حومة صريوة من عدوة الأندلس، وذلك كله في جمادى الأخيرة عام تسعين وألف كما في التقاط الدرر.

ومنها إعادة بناء زاوية الشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي شيخ شيوخ العلم والتحصلي وتوسيع أكنافها والمبالغة في تنميقها وإتقانها قال في التقاط الدرر: وأتقنها توسيعا وبناء وتزليجا وتجصيصا وكان الشروع في بنائها في عشرين ربيع الأول عام ١٠٩١.

وفي عام تسعة و ثمانين وألف ابتدأ العمل في جلب الماء للزاوية المذكورة.

وفي عام ثلاثة وتسعين وألف جدد مسجد الأندلس ورصف أرض صحنه بالزليج، يشهد لذلك ما هو منقوش في الخشب خارج قبة السقاية هنالك، ولفظه:

مولاي إسماعيل ألبسني إليها فسحبت ذيلي فوق كل نفيس

(١) أعني الفاسية.

زهـــوي بيـــت الله حـــسبي مفخـــرا إذ صرت أجـــلى فيـــه جلـــو عـــروس
فرفعـــت فـــوق السلـــسبيل سرادقـــا في عـام (١٠٩٣ يجمـل شـاهد) تاسيـسي

وكان ابتداء العمل فيه عام تسعة وثمانين وألف.

أما تأسيس الضريح الإدريسي وتجديده والزيادة فيه فقد فعل ذلك به مرارا؛ ففي عام ستة ومائة وألف ١١٠٦ بناه تحت إشراف عامله على فاس أبي علي الروسي يدل لذلك ما قرأته من قصيدة مطلعها:

ألا أرفـــع ناظريـــك إلي حينـــا تجـــد حـــسنا يـــسر الناظرينـــا
ومتـــع طـــرف طرفـــك في ريـــاض وأورده بهـــا عـــذبا معينـــا
كـــأني مـــن قبـــاب جنـــان عـــدن أتـــت تـــدعوا إليهـــا المتقينـــا
وأســـسني وشـــاد عـــلا بنـــائي عـــلى التقـــوى أمـــير المؤمنينـــا
ســـليل المتقـــى مـــن نـــسل فهـــر شـــفيع الأولـــين والأخرينـــا
أبـــو النـــصر المؤيـــد في البرايـــا بـــإذن الله خـــير الناصرينـــا

إلى أن قال:

شريـــف طـــاهر ملـــك همـــام أمســـام الأوليـــاء المرشـــدينا
حـــوى (مـــولاي إســـماعيل) فـــضلا كبـــيرا لـــن يـــرى في الـــسابقينا
بـــإذن الله شـــد حـــزام حـــزم وعـــزم واعتنـــاء المعتنينـــا
خـــديم عـــلا حمـــاه أبـــو عـــلي بنـــي الـــروسي أجـــل الناصـــحينا

إلى أن قال:

وتـــاريخي بـــدا في زي (شـــوق ١١٠٦) بـــيمن الله هـــادي المهتـــدينا

وكانت على قبة الضريح قبل هذا البناء قبة خشبية نقلت لمسجد عقبة بني صوال

المعروف بمسجد ابن البياض على مقربة من مسجد الرصيف وهي الموجودة الآن بسقفه.

وزاد في مسجد الضريح المذكور زيادة مهمة بمراقبة العامل المذكور بعد جمع البناءين ومفاوضتهم وأخذ آرائهم في الكيفية التي يراد البناء عليها من جديد وتخطيط صورة ذلك طبق المبتغى، وعند انتهاء درس ذلك وتصويره قدمت الصورة للجلالة الشريفة الإسماعيلية فجاءت وفق المراد ووقع الشروع في البناء، قال في الأزهار العاطرة الأنفاس: ثم في أوائل القرن الثاني بعد الألف زاد في هذه الروضة زيادة أخرى معتبرة أنيقة الوزير الرئيس القائد أبو علي الروسي وبلغ فيها المجهود بالتزويق والنقش ونحوهما هـ.

وفي عام خمسة عشر ومائة وألف جدد قنطرة الرصيف.

وفي تاسع عشر ذي القعدة من عام عشرين ومائة وألف أحدث قراءة حديث الإنصات عند خروج الخطيب وجلوسه على المنبر يوم الجمعة؛ إعلامًا للمصلين بالإمساك عن الكلام والتهيئ لسماع الخطبة.

وفي عام ستة وعشرين ومائة وألف أنشأ بالضريح الإدريسي سقاية أنيقة أبدعت يد الصانع في وشيها ما شاءت، ونمقت بأنواع الزخرفة والنقش البديع والألوان المتناسقة الجذابة، وأجرى الماء بأنابيبها الوهاجة يدل لذلك ما هو مكتوب في الرخامة التي هي الآن بين سقايتي العين بالحائط المواجه للصحن عن يمين الخارج من باب الحفاة أحد أبواب الضريح الإدريسي، ولفظه: «الحمد لله من سعادة الدولة المولوية، الهاشمية العلوية، الشريفة الإسماعيلية، ويمن طلعتها واعتنائها من المآثر الحميدة بفرضيتها وسنيتها ورغيبتها، أسس هذه السقاية البديعة، وما انضاف إليها من الأعمال الجديدة الرفيعة، بعد استنباط مائها الجاري من مكامنه الخفية، وإيصاله لها

بطرق غريبة وأعمال هندسية، إذ بوجوده أطال الله بقاءه تهيأت هذه الأمور، ومن بركته ظهر منها ما لم يكن له قبل ظهور، وكان المنتدب لذلك والقائم عليه خديم دولته، وزربي نعمته، القائد أبو علي ابن القائد عبد الخالق ابن القائد عبد الله ابن القائد حمدون الروسي فبذل فيها يبيض وجه مولانا نصره الله من هذه الفائدة المجهود، وخدم هذا المقام الإدريسي بما يرجى له بلوغ المقصود، وحاز هذه المنقبة بزمن الإقبال، وفاز بصالح الدعاء من المنتفعين بمائها على مر الليال، وكان البدء لما ذكر والتمام، في النصف الأول من عام (شوقك ١١٢٦) والسلام».

وفي هذه السقاية يقول أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدلاءي:

لئن كان هذا الماء جاء مسيرا ... لإدريس نبعا من خفي مواضعه

فلا عجب في ابن الرسول الذي غدا ... وفيض نمير الماء شان أصابعه

والبيتان مما كان نقش قديما بأعلى السقاية.

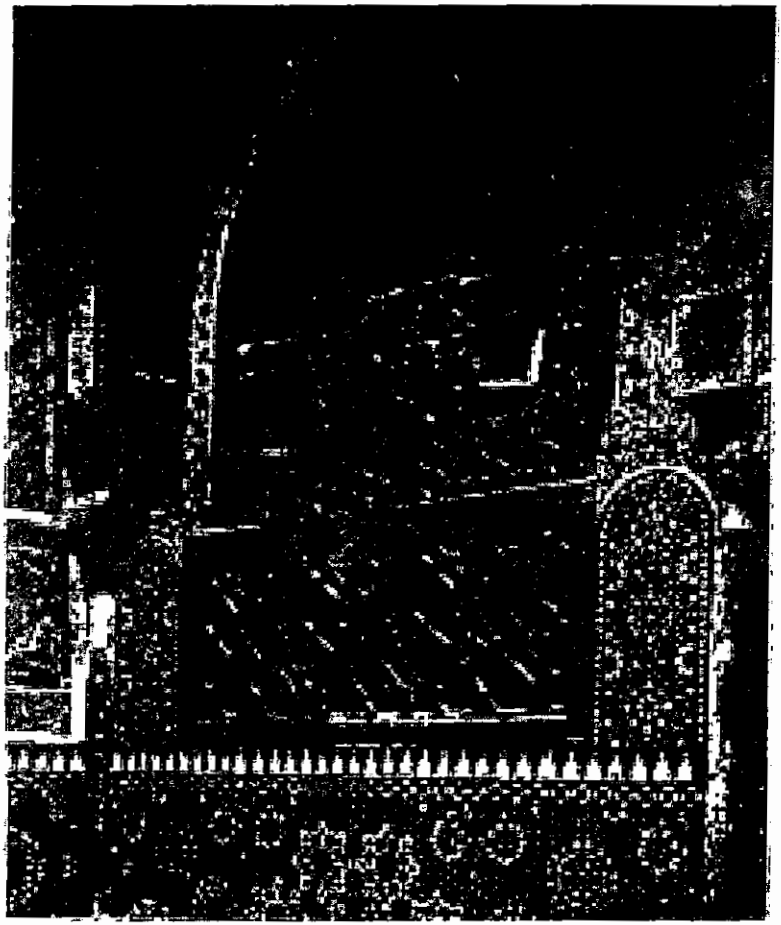

زاوية الضريح الأدريسي

بفاس

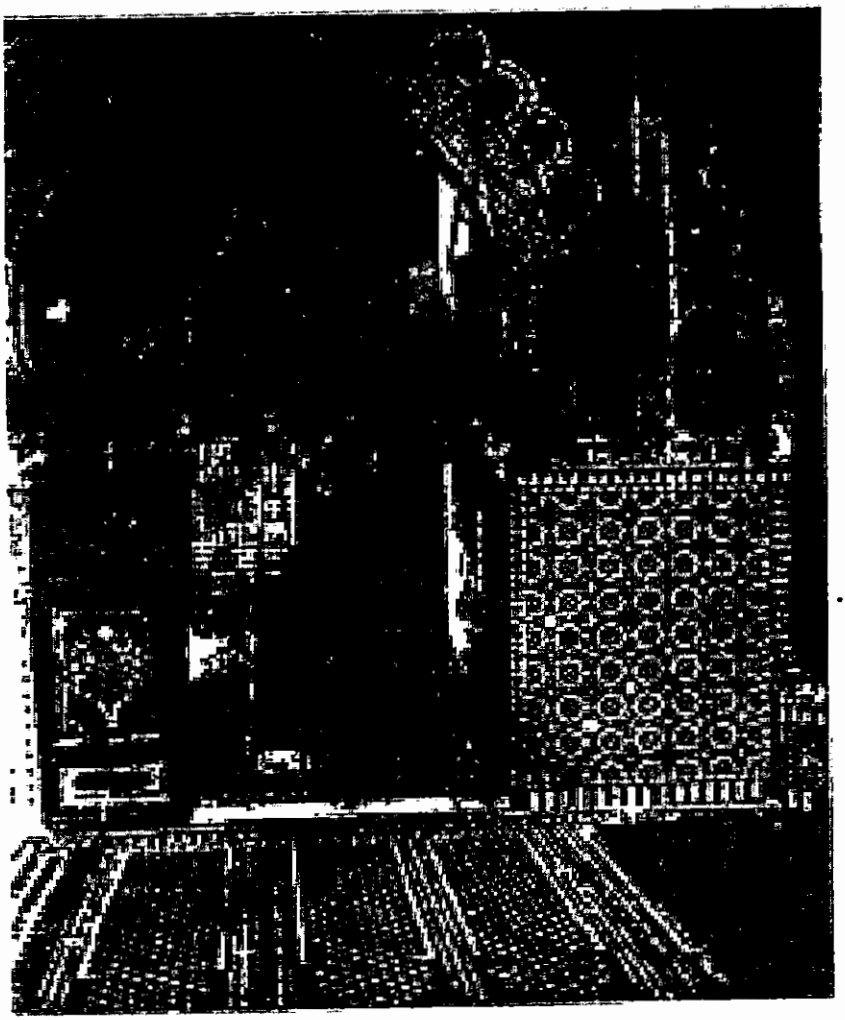

منظر الضريح الأدريسي

من باب التوابيت

٦٧

قال في عقد الحبس لهذا الماء: وقد شرط هذا المحبس ألا يبدل هذا الماء عن حاله، ولا يغير عن سبيله، ولا يخرج عن قراره، ولا يحول شيء منه عن مجراه ولا يهدي ولا يعطي ولا يقتنى ولا يعار، ولا تعقد في كثيره ولا قليله معاوضة ولا استيجار، ولا تتطال إليه الأبصار، من قريب ولا من بعيد ولا من جار، ومن اختلس منه بخلسة، أو دس فيه بدسة، أو تحيل بحيلة أو غيلة فالله تعالى حسيبه وهو عليه وكيل يوم يقف بين يديه.

وكان الأشهاد عليه بتحبيس ماء مسجد الشرفاء في أواخر محرم الحرام فاتح عام ستة وعشرين ومائة وألف.

وفي أواسط ذي القعدة سنة سبع وعشرين ومائة وألف أنشأ سقاية لطيفة بالجدار الجنوبي من المدرسة الرشيدية المارة الذكر من جهة نهج الشراطين نقش في زليج أعلاها شعر يتضمن تاريخ البناء وشكر الباني، يقول فيه:

انظر بدائع صنعي هل البديع نظيره
بأمر مولاي إسماعيل (جاء غزيره ١١٢٧)

أشار بلفظتي جاء غزيره للتاريخ المشار إليه، وحبس ماءها الجاري بها وشرط فيه نفس ما شرطه في تحبيس ماء سقاية الضريح الإدريسي بتاريخ أواسط ذي القعدة عام ١١٢٧، وجمع الحبسين معا في عقد واحد قال شهوده: وتأخر كتبهما معا هنا في أواخر القعدة المذكورة وقد نقل صاحب الأزهار العاطرة الأنفاس نص عقد هذا التحبيس برمته تركت جلبه اختصارا.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف صنع الشباك الذي هو الآن على الضريح الإدريسي صوتا للقبر من لمس أيدي الزائرين، وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد السناوي على لسان ذلك الشباك مضمنا لتاريخ صنعه ووضعه:

جعلت لقبر شرف الله قدره ... صيانا يقي من كثرة اللمس بالأيدي

ولي نسبة محمودة أنتمي بها ... إلى مجد شباك الضريح المحمدي

كنسبة مولى قد أحطت بقبره ... إلى بدر تلك الحجرة المتوقد

وفي دولة المولى أبي النصر نشأتي ... أُديمت وتاريخي (يصح بمشهد ١١٢٩)

وفي سنة ثلاثين ومائة وألف أسس بالضريح المذكور المنار البهي البهيج مثمن الشكل وشت فيه يد الإبداع ما شاءت بترصيع الزليج الفاسي المتعدد الألوان المستوقف لأنظار أولي الاعتبار، قال في الأزهار العاطرة الأنفاس: وقد رأيت بخط العلامة المؤرخ أبي العباس ابن إبراهيم المشترائي من نصه:

الحمد لله عن إذن سيدنا أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، تاج الشرفاء الأطهار، وشمس الخلفاء الأخيار، السلطان الجليل، أبي النصر (مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف)، العلوي الحسني المنيف، أيد الله تعالى نصره، وأيد أمره، وخلد في المكرمات ذكره، آمين، شيد هذا المنار البديع، ذو الشكل المؤنق الرفيع، على يد خديمه الأنصح، الحازم الأنجح، معظم شعائر الله، ومحب آل بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم القائد أبي علي ابن القائد عبد الخالق الروسي تقبل الله أعماله، وبلغه من خير الدارين آماله، وكمل صنعه المحكم، وتشييده البهي الأقوم، عام ثلاثين ومائة وألف رزقنا الله خيره، ووقانا بمنه ضيره، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وجميع أحبابه وحزبه هـ.

وفي سنة اثنين وثلاثين ومائة وألف زاد زيادة ذات بال في توسعة قبة الضريح ومسجده وصير عرض القبة كطولها، ولما صدر الأمر بهذا التجديد أجمع العملة من أهل فاس رأيهم على قسم حوماتها على واحد وعشري قسمة، وصارت كل قسمة تخدم يوما بقضها وقضيضها فأهل الهيئات والوجاهات يقفون مع الرئيس في البلاط

للمفاوضة في ترتيب الخدمة إلى أن يأخذ كل في مباشرة أعماله، ويذهبون لحالهم مع الغدو أو الضحى ومن دونهم يخدمون بأنفسهم في مباشرة العمل أمَّا شراء الجيار[1] والآجر وما يتوقف عليه البناء فمن الخزينة السلطانية كما قاله صاحب التقاط الدرر وغيره.

وقد جلب للمسجد من الأعمدة الرخامية الأبيض والأسود وفوارة من صافي المرمر أتقن الصانع صنعها، وأبدعت فيها ما شاءت يد الإبداع جعلها وسط الحصن قبالة قبة الضريح وأجرى إليها لجنين المعين الزلال وبالغ في الاتقان وتفنن الفنانون في تزويق جبس الجدرات وتنميقها بالزليج، وشيد المنار الموجود هنالك الآن حيث أن المثمن المذكور هد وزيد محله في توسعة المسجد، وكان انتهاء العمل في هذا التجديد وتسقيفُ القبة على الهيئة الموجودة الآن كما في التقاط الدرر أواخر ذي الحجة الحرام من العام، وجعل عرضها كطولها ستين ذراعا.

وبمجرد انتهاء العمل في المسجد أعاد إليه الخطبة التي كانت نقلت منه لغيره ومن ذلك الحين وهو مسجد جامع تقام فيه الخطبة إلى اليوم، وأول خطيب خطب فيه بعد التجديد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدلائي[2].

---

(١) المراد خلط التراب مع الجير وعجنه بالماء، قال الأخطل يصف ناقة شبهها بالبرج في صلابته وقوتها:

كأنها برج رومي يشيده ... لزبطين وآجور وجيار

وإذا لم يخلط بالبورة فهو الجير بالكسر.

(٢) كانت خطبته بحسب النيابة عن أبي عبد الله محمد بن محمد المسناوي الدلائي المولود سنة اثنين وسبعين وألف المتوفى سنة ست وخمسين ومائة وألف وإنما أناب المذكور لمرضه وقت التنفيذ له، وبعد وفاة ابن عبد الرحمن هذا سنة اثنين وخمسين ومائة وألف ولي الخطابة أبو عبد الله محمد الكبير ابن محمد السرغيني إلى أن توفي سنة أربع وستين ومائة وألف. ثم وليها

قال القادري في النشر والتقاط الدرر: إن المولى إسماعيل لما جدد بناء الضريح الإدريسي عام اثنين وثلاثين ومائة وألف بحث في قبلته الميقاتي سيدي العربي الفاسي[١] وكتب في ذلك مؤلفا فلما أنهى ذلك للجلالة الإسماعيلية أمرت بتجديد البناء أن صح البحث فاجتمع عن أمره الشريف علماء الوقت والقاضي والعامل وانفصلوا على أن البحث وإن صح في نفسه لا يوجب الهدم لما فيه من ضياع الأموال الطائلة ولإمكان التفصي عنه بالانحراف، قال: وجرى العمل بالتنبيه على ذلك في مسجد القرويين بقول المؤذن بأرفع صوت بعد فراغه من الإقامة: حرفوا بتحريف الإمام يرحمكم الله. وكثير من محاريب مساجد فاس كذلك وإن كانت هذه المقالة لا تقال في غيرها الآن[٢] هـ.

بعده أبو زيد عبد الرحمن بن إدريس المنجرة المولود سنة أحد عشر ومائة وألف المتوفى سنة تسع وسبعين ومائة وألف. ثم وليها أبو عبد الله محمد ابن الحسن شاني محشي الزرقاني المولود سنة اثنين وأربعين ومائة وألف المتوفى سنة أربع وتسعين ومائة وألف. ثم أبو يعيش يحيى بن المهدي بن الطالب الشفشاوني المتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين وألف وقد تنازل عنها لأبي عبد الله محمد بناني. ثم بعده أبو عبد محمد بن أحمد السنوسي المتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف ثم سيدي الوليد ابن العربي العراقي المتوفى سنة خمس وستين ومائتين وألف. ثم سيدي أحمد بن محمد النسب المتوفي سنة ست وثماني ومائتين وألف. ثم العلامة أبو العباس أحمد بن الطالب بن سودة المري قاضي الحضرة الإمامية السلطانية مكناسة الزيتون المولود سنة أحدى واربعين ومائتين وألف المتوفى سنة واحد وعشرين وثلاثمائة وألف. ثم نجله صديقنا أبو محمد العابد فسح الله في أجله وهو الخطيب ه الأن صح مؤلف.

(١) انظره فإن العربي هذا توفي عام ١٠٩٦.

(٢) ذكر شارح العمل أن ولد ابن غازي قال: إن ميل قبلة فاس عن عين المشرق إلى جهة الجنوب إحدى عشرة درجة بناء على أن طول مكة سبع وستون درجة وأن القرويين انحرافها عن عين الجنوب إلى المشرق بنحو ستة أدراج. اهـ.

ثم أُعيد تجديد هذا الضريح عام ثلاثة وثلاثين تحت إشراف نجله وخليفته بفاس جدنا الأعلى المولى زيدان، يدل لذلك ما قرأته في قصيدة مطلعها:

بحمد الله يبدأ كل أمر ... له بال وبالحمد الختام
وذا مولاي إدريس أبوه ... أمام الغرب إدريس الهمام
لسنة جده المبعوث أحيا ... وكان الكفر عم له ظلام
أجاب الناس للإسلام طوعا ... ومن كرهوه عاجلهم حسام
به فاس تفاخر كل قطر ... وحق لها الفخار المستدام
بها الدين القويم بها علوم ... بها العبَّاد قد صلوا وصاموا
على التقوى مؤسسها بناها ... وركن الدين ليس له انهدام

إلى أن قال:

وقد أمر الإمام أبو المعالي ... ومن ولدته سادات عظام
هو المنصور إسماعيل مولى ... أتته خُضَّعا سام وحام

إلى أن قال:

بتجديد الضريح يروم أجرا ... من الرحمن إن حُشر الأنام
على يد نجله النجم المرقي ... إلى العلياء فهو لها سنام
فزد (مولاي زيدانا) فخارا ... بما أولاك مولاك السلامُ

إلى أن قال:

فذي آثاره سرح جفونا ... تجد اثرًا يزينه الوئام
كأزهار بروض أو كدر ... نفيس راق منظره النظامُ
وتاريخ البنا في (الغرب ١١٣٣) يبدو ... لشخص بالحساب له اهتمام

وفي عام أربعة وثلاثين صدر الأمر الإمامي بهدم السقاية المذكورة آنفا وإنشاء

سقايتين بدلها وهما الموجودتان الآن بباب الحفاة، وقد وقع التصريح بالباني وتاريخ البناء في أبيات نقشت في زليج أسود بأعلاهما، قال في مطلعها:

هـذا طـراز بـديع يـسحر النظـرا ... فـسرح اللحـظَ واسـتمتع بـه نظـرا

إلى أن قال:

وانظـر إليَّ تـرى المـولى الـذي خـضعت ... لـه الـسلاطين والـسادات والأمـرا

وذاك (مـولاي إسـماعيل) نعمتنـا العـ ... ـظمى التـي أكـرم الله بهـا البـشرا

إلى أن قال:

في عام (يشفيك طه ١١٣٤) الهاشمي كما ... شـفى وأحيـا قلوبـا سرهـا اشـتهرا

ومنها تأسيس ميضاة جامع عقبة ابن صوال أسسها عام خمسة وعشرين ومائة وألف، يدل لذلك ما هو مكتوب بأعلى سقاية كنف جامع العقبة المذكورة الواقع أسفلها، ولفظه:

يـا نـاظرا قـدسره ... حـسن صـنعي الظـاهر

متـع لحاظـك هنـا ... في ذا الجـمال البـاهر

هـذي مـآثر بنـي الـ ... ـمولى الـشريف الطـاهر

هـم أبـدعوها نزهـة ... وسـلوة للخـاطر

عونـا لطالـب الهـدى ... مـن وارد وصـادر

جـزاهم إلهنـا ... خـيرًا اليـوم زاهـر

ومـن أعـانهم عـلى ... أمـر بـأجر وافـر

وان تـرد تاريخـه ... (أجـاده للنـاظر ١١٢٥)

ولهذا الإمام وغيره ممن أتى بعده من بنيه وأحفاده في تجديد المساجد أسوة بجده المعصوم في زيادته في مسجده الكريم مفتتح سبع من الهجرة واقتفى أثره في ذلك بعده

ثاني الخلفاء الفاروق؛ فقد زاد في المسجد النبوي سنة ١٧، وقد أعاد ثالث الخلفاء ابن عفان بناء مسجد الرسول سنة ٢٩ وبنى جدار المسجد بالحجارة المنجورة والجيار وجدده عمر بن عبد العزيز ونمقه وزوقه ونقش جدارته بالمرمر والفسيفساء وعمل سقفه من الساج وحلاه بماء الذهب ونقش رءوس الأساطين والأعتاب بالذهب، وهو من هو زاهدا ومتانة دين؛ وناهيك أنه من صلحاء أهل القرون المشهود له بالفضيلة على لسان من لا ينطق عن الهوى وكان ابتداء العمل في ذلك عام ٨٨، وتم العمل فيه عام ٩١.

السلطان عبد الله ابن السلطان إسماعيل

ولد بمهد سلفه تافيلات بقصبة الفرخ من وادي يفلي منتصف ذي الحجة عام إحدى وعشرين ومائة وألف موافق ١٥ فبراير سنة ١٧١٠م.

وبويع له بفاس في شعبان عام ١١٤١ واحد وأربعين ومائة وألف موافق مارس سنة ١٧٢٩ وهو يومئذ بسجلماسة.

وتوفي بفاس بداره دار دبيبغ ليلة الخميس سابع وعشرين صفر عام ١١٧١ موافق ١٠ نونبر سنة ١٧٥٧ ودفن بقبور الأشراف من فاس الجديد[1].

قال في حقه أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في التقاط الدرر ما نصه: كان له حزم وعزم وقوة ونجدة وإقدام وعلو همة وجود ومن عظيم شيمه احترامه الشرفاء والطلبة والمرابطين والضعفاء لكن أغاظته طغات رعيته فأوقع فيها نهبا وقتلا عظيما هـ.

---

(١) من دواعي الأسى ما وقع في العهد الأخير بتلك البقعة الزكية حيث المسجد الأعظم ومدفن الملوك المتقين والأشراف الطاهرين من تدنيسها بالبغاء العلني والفجور البارز، وإن النفس لتذوب عندما تسمع اسم (مولاي عبد الله) قد صار علما بالغلبة عند العامة على مكان البغاء والتجاهر بالفسوق والعصيان مع وجوده بقرب تلك المشاهد العظام، وحيث القصور الإمامية العالية الضخام، السامية المقام.

قرأت في تابوت ضريحه بخط مشرقي كاد الدهر أن يمحو أثره ما لفظه:

الحمد لله هذا ضريح من طاب أصله
سليل خير البرايا سبط الرسول ونجله
عبد الإله ابن اسما عيل الذي شاع فضله
أعظم به من إمام قد أخجل البحر بذله
أولاه مولاه عفوا إذ كان لله نقله
وفي المعاد بفضل عند الإله يظله
تاريخه منه معنى على رضي الله حمله
لم لا وفي اللفظ منه جنات عدن محله

من آثاره بفاس القصر المؤسس لسكناه المعروف بدار دبيبغ تشغل بقية هذا القصر الآن إدارتا المالية والمدفعية العسكرية؛ ومسجدها الذي هو الآن محل لحفظ سروج العسكر.

ومن آثاره بها أيضا البستانان اللذان بدار دبيبغ؛ أحدهما خارج القصر متسع الأكناف، فيه من الأشجار المثمرة بمختلف الفصول عدد كثير، وثانيهما داخل القصر أقل من الأول مكتوب بخدي قبة سكنى الملك في نقش زليج ما لفظه:

تأمل بهجتي وبديع حسني وما رقمته أيدي الراقمينا
بناني من له رتب المعالي وحامي الحي آمرنا رضينا

وعلى خدي قبتين هنا لك أيضا أحداهما شرقية ما لفظه:

هذه الدار أضاءت بهجة واستنارت بأمير المومنينا
كتب النصر على أبوابها: ادخلوا بسلام آمنينا

والأخرى غربية لفظها ما بخديها:

ألا يـــا داخـــلا بـــاليمن أبـــشرا وبالإقبـــال في وقـــت ســـعيد

أنـــا بـــاب المـــسرة والتهـــاني ومظهـــر حـــسني ذو القـــدر المـــشيد

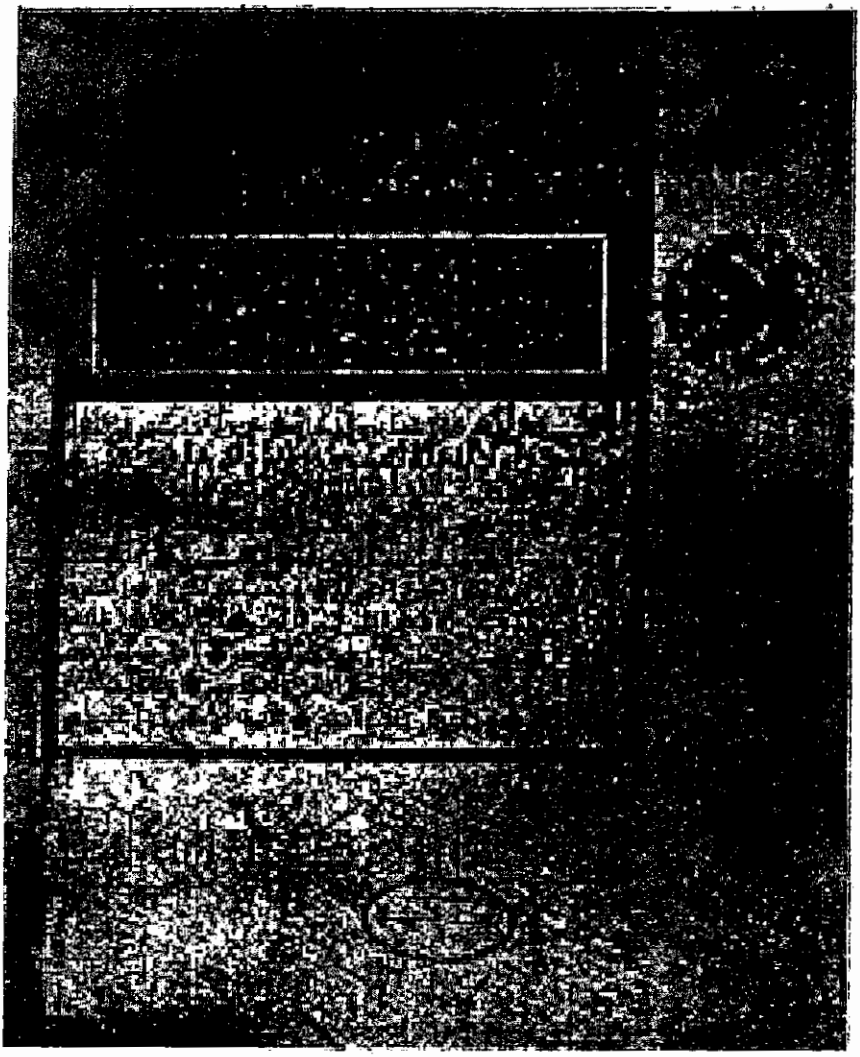

قصر السلطان مولاي عبد الله

ومن آثاره العلمية الأدبية إصدار أوامره بإحياء المجموعة التي جمعها وزير والده أبو عبد الله محمد بن الحسين اليحمدي المحتوية على أجزاء عشرة، وهذه النسخة توجد بالمكتبة الزيدانية تحت عدد ٨٣٣ مصرح فيها بأن الأمِر بإحيائها هو هذا الأمير العالي الأوامر، وتحبيسه نفائس من الكتب العلمية القيمة على خزانة جامع القرويين العامرة.

السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل

ولد بمكناسة الزيتون سنة أربع وثلاثين ومائة وألف موافق ١٧٢١-١٧٢٢.

وبويع بفاس إثر الفراغ من دفن والده يوم الإثنين خامس وعشرين صفر عام واحد وسبعين ومائة وألف موافق ٨ نونبر سنة ١٧٥٧ سبع وخمسين وسبعمائة وألف وهو يومئذ بمراكش.

ووجهت البيعة من فاس إلى مراكش وقرئت على منبر جامع المنصور بالقصبة هنالك، وكان الذي تولى قراءتها هو قاضي العاصمة الفاسية أبو محمد عبد القادر بن العربي بوخربص الكاملي الجعفري.

وتوفي بين وادي يكم ووادي الشراط ليلة الإثنين سادس وعشري رجب عام أربعة ومائتين وألف، وقيل مات يوم الأحد رابع وعشري الشهر الموافق ١١ إبريل سنة ١٧٩٠ وحمل لداره بالرباط ودفن بإحدى قبابها وقد رمز لتاريخ وفاته أبو الربيع سليمان الحوَّات بقوله:

وإن تـــــرد تاريخـــــه فإنـــــه (قـــد قـــدس الله العزيـــز سره)

قال في حقه عصريه الحافظ أبو محمد عبد السلام بن الخياط الشريف القادري ما لفظه: قد نظر في المصالح وقام بها قياما لم يقم به أحد من أهل عصره من ملوك الإسلام ولم يسبق إليه غيره من الخلفاء غير الراشدين الاثنى عشر ولا أحد من ملوك